

القسم الثانى

مفاهيم مغلوطة

- ١ - التدين المنقوص .
- ٢ - الفهم المغلوط للدين .
- ٣ - الإسلام والإرهاب .
- ٤ - تجارة الشعارات الدينية .
- ٥ - تقييب العقل .
- ٦ - التكافل الاجتماعى وهرم الأولويات المقلوب .
- ٧ - احتكار الدين .

(١)

التدين المنقوص (*)

يشهد « شهر رمضان » من كل عام حماساً دينياً متزايداً من جماهير غفيرة من المواطنين فى أداء الشعائر الدينية ، وحرصاً متتامياً من الرجال والنساء على التردد على المساجد ، وتشهد بعض المساجد فى العديد من الأحياء آلاف مؤلفة من المواطنين الذين يواظبون على أداء صلاة التراويح خلف الأئمة لفترات تصل إلى ثلاث ساعات كل ليلة ، بالإضافة إلى التهجد والاعتكاف. وتقبل الجماهير بصفة خاصة على الإمام الذى يدعو ويكثر من الدعاء وينزف الدموع ويجعلهم أيضاً ينزفون الدموع الغزيرة . وليس هناك اعتراض على شىء من ذلك ، فمن حق المواطنين أن يتعبوا على النحو الذى يريدونه ، ولا يجوز لأحد أن يمنع عابداً من التعبد بالطريقة التى يرتضيها .

وينشط كثير من الموظفين فى مكاتبهم فى هذا الشهر الكريم - على غير العادة فى غيره من الشهور - فى أداء صلواتهم فى مكاتبهم ، وهذا أيضاً ليس محل اعتراض ، ولكن الاعتراض ينصبُّ على الفترة الزمنية الطويلة التى يقضيها الموظف فى عبادته دون مراعاة لجماهير المواطنين الذين

(*) نشر هذا المقال بصحيفة أخبار اليوم فى ٤/١١/٢٠٠٦م .

ينتظرون قضاء مصالحهم لدى هذا الموظف أو ذاك، ولا يستطيع أى منهم أن يبدى تبرمه لسلوك الموظف المتعبد الذى لا يهتم بمصالح المواطنين. فالأولوية لدى هذا الموظف وأمثاله للعبادة ، مهما طال زمن أدائها ، وليس لمصالح المواطنين . وليس لأحد أن يبدى اعتراضًا على ذلك وإلا اعتبر عدوًا للدين . ولذلك يكتّم المواطنون غيظهم ولا ينبسون ببنت شفة .

وهنا تكمن المشكلة .. فالملاحظ أن هناك انفصامًا لدى الكثيرين من المتدينين بين العمل للدين والعمل للدنيا. ففي الوقت الذى نرى فيه حماسًا دينيًا شديدًا ومتزايدًا لدى الكثيرين لا نجد لديهم فى المقابل أدنى اهتمام بالعمل من أجل مصالح الدنيا التى نعيش فيها والتى خلقها الله لنا لنعمرها بالخير ونثريها بالعلم ونبنئها بالعمل وننشر فيها الأمن والسلام للبشر جميعًا .

وتلك هى مشكلة عالمنا الإسلامى ، فالانسحاب من الدنيا والانكفاء على الذات والاستغراق فى العبادة يؤدى فى تصور هؤلاء إلى رضا الله والفوز بالآخرة ، وهذا - فى نظرهم - هو المطلوب ، أما العمل للدنيا وإعمارها فهذا أمر لا يدخل فى قائمة الأولويات ولا يحظى بأى قدر من الاهتمام .

وقد أدى هذا الانفصام إلى ما تعانيه الأمة الإسلامية من تخلف لا تخطئه العين في شتى أنحاء العالم الإسلامي ، حتى في بعض الدول الإسلامية التي لديها وفرة في الثروة . نجد فيها التراخي في العمل أكثر من غيرها . على الرغم من القشرة الحضارية الظاهرية المستوردة التي قد يلحظها المرء هنا أو هناك .

لقد شهدت في موسم الحج — على سبيل المثال — أنهارًا من البشر تفيض من عرفة إلى المزدلفة سيرًا على الأقدام ، يسرون في مشهد مهيب، يميز لباسهم اللون الأبيض، ويفيضون كماء النهر في نظام لا يعكره نزاع أو صدام .

فإذا ما انتهى موسم العبادة - في رمضان أو في الحج - يلحظ المرء انخفاضًا في درجة الحماس الديني من ناحية ، ولا يجد لهذا الحماس مردودًا إيجابيًا على سلوك الناس من ناحية أخرى. وذلك على الرغم من أن هدف جميع العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج هو تطهير النفس الإنسانية من كل خلق ذميم وإقبالها على كل خلق حميد وتوجيه المؤمنين إلى كل عمل يخدم الحياة الدنيا ويزرع فيها الأمل ويدفع بها إلى الازدهار والتقدم والارتقاء .

إن الإسلام - دين الوسطية والاعتدال - لا يريد منا أن نعمل للأخرة على حساب الدنيا ولا أن نعمل للدنيا على حساب

الآخرة ، وإنما نعمل من أجلهما معاً فى تناسق وانسجام كما يقول القرآن الكريم :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَيْنَكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۗ ﴾ ^(١) .

وكما جاء فى الآثار المروية :

[اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً] ^(٢) .

وتقديس الإسلام للعمل من أجل الدنيا نراه — على سبيل المثال — فى الحديث الشريف الذى يقول :

[إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة (شجيرة صغيرة) فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفل] ^(٣) .

ويرمز هذا الحديث إلى أهمية استمرارية العمل من أجل خير الدنيا حتى آخر نفس فى حياة الإنسان. وقد رأى النبى عليه الصلاة والسلام رجلاً يتخرج من مد يده للسلام عليه نظراً للشقوق الكثيرة فى يده من كثرة العمل ، فقال له الرسول ﷺ :
[هذه يدٌ يحبها الله ورسوله] .

(١) سورة القصص : ٧٧ .

(٢) النهاية فى غريب الأثر .

(٣) مسند الإمام أحمد .

والعمل المطلوب فى الإسلام يشمل جميع مناحى الحياة ،
والكل مطالب بالعمل الذى يبنى ولا يهدم ، ويعمر ولا يخرب ،
ويرتقى بالحياة ويدفع بها إلى الأمام . وكل فرد مسئول عن أداء
واجبه فى هذا الصدد والإسهام بما يستطيع أن يقدمه من خير
للناس حتى ولو كان مجرد ابتسامة كما جاء فى حديث شريف :
[لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه
طلق] ^(١) . أى : بوجه بشوش ، و [تبسمك فى وجه أخيك
صدقة] ^(٢) كما جاء فى حديث آخر .

والقرآن الكريم يربط فى العديد من آياته ربطاً وثيقاً بين
الإيمان والعمل . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات هم المقبولون
عند الله وهم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والإسلام
دين لا يريد من أتباعه أن ينقطعوا عن الدنيا ، بل يحثهم على
التسابق مع غيرهم فى الخيرات : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ ^(٣) .
والحديث فى هذا الشأن يطول ، وفى القرآن الكريم وفى الأحاديث
النبوية زاد كثير لتأكيد هذه المعانى .

والسؤال المحير هنا هو : إذا كان هذا هو شأن الإسلام فما
بالمسلمين قد تخلفوا عن ركب الحياة وتراجعت حضارتهم
منذ قرون ؟

(١) صحيح مسلم .

(٢) سنن الترمذى .

(٣) سورة البقرة : ١٤٨ .

إن مما لا شك فيه أن هناك أسبابًا كثيرة لهذا التخلف ، وعلى رأس هذه الأسباب - فى رأينا - ذلك الانقسام القائم فى حياة المسلمين بين العمل للدين والعمل للدنيا ، واختزال الإسلام فى تدين منقوص يقتصر على أداء الشعائر المعروفة دون أى صلة بينها وبين العمل من أجل الدنيا ورفقها وازدهارها . فقد تخلى معظم المسلمين عن الفهم المتكامل للدين واكتفوا بفهم قاصر لمقاصده وأهدافه . ومن هنا كان توصيف مالك بن نبي لهذا التخلف بقوله :

" إن التخلف الذى تعاني منه الأمة الإسلامية ليس سببه الإسلام وإنما هو عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يظن بعض الجاهلين " .

والتخلى عن الإسلام هنا يعنى الفهم المغلوط لتعاليمه والبعد عن مقاصده ، الأمر الذى يبين لنا أن الإسلام دين مظلوم من أتباعه مثلما هو مظلوم من خصومه .

وإذا أراد المسلمون أن يستعيدوا أمجادهم ويكون لهم مكان فى عالم اليوم فلن يتحقق ذلك إلا بالعلم والعمل للدين والدنيا على السواء حتى يفوزوا بخيرى الدنيا والآخرة . أما التدين المنقوص المشار إليه فإنه يكاد أن يتساوى فى نهاية المطاف مع التدين الشكلى الذى يتمثل فى بعض المظاهر الخارجية والذى

لا يجدى نفعاً ولا يحقق هدفاً ولا يؤدي إلى رضا الله . فالله لا ينظر إلى صورنا وأشكالنا ، ولكن ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا - كما جاء في الحديث الشريف - عن النبي عليه الصلاة والسلام.

والأمر الذي يجب أن يدركه المسلمون ويستقر في أذهانهم وقلوبهم أن العمل من أجل خير الدنيا هو في الوقت نفسه عمل من أجل خير الآخرة ، ويندرج تحت مفاهيم العبادة والعمل الصالح والتقوى مادام يقصد به وجه الله ونفع الناس ودفْع الأذى عنهم .

وبالعلم والعمل يتم لهم التمكين في الأرض والحصول على خيراتها المدفونة في باطنها واستغلالها الاستغلال الأمثل من أجل خير الناس . والتمكين في الأرض بدوره من شأنه أن يؤدي إلى التمكين للدين ويعين في الوقت نفسه على حسن أداء شعائره وتحقيق مقاصده ، كما يؤكد ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ ^(١) .

(١) سورة الحج : ٤١ .

إن المسلمين فى حاجة إلى صحوة حقيقية ترتفع فوق صغائر الأمور وهامشيات الدين وتترك جوهر الإسلام وتعالى من شأن العقل وتمكّنه من أداء دوره الفاعل فى الحياة ، وتنبّعد عن الجمود والانغلاق والانكفاء على الذات والتواكلية البغيضة ، وتتخلى عن الجرى وراء الخرافات والأوهام والدروشة الفارغة والتشدد الممقوت والتمسك بعادات وتقاليد مرذولة ألصقت بالدين ظلمًا وعدوانًا .

وأعتقد أن أول خطوة على هذا الطريق تتمثل فى القضاء على الانفصام فى حياة المسلمين بين العمل من أجل الدنيا والعمل من أجل الآخرة ، وعقد مصالحة بينهما تتأكد بها القيم الإسلامية الدافعة لتقدم المجتمع ، وتجديد الفكر وإحياء فريضة الاجتهاد ، والتخلص من الكثير من الشوائب التى طرأت على الدين والتدين فحجبت الرؤية الصحيحة لجوهر الإسلام فى صفائه ونقائه ووسطيته واعتداله .

ويقدم شهر رمضان فى كل عام فرصة سانحة أمام المسلمين للمراجعة والتقييم وإعادة النظر والتفكير فيما آلت إليه أحوالهم والبحث عن أفضل السبل للخروج من المأزق الذى حوصر فيه المسلمون ، أو حصروا أنفسهم فيه بغير وعى ، والانفتاح على آفاق العصر ومواكبة متغيرات الحياة والمشاركة الفعالة فى

رسم مستقبل هذا العالم الذى نحن جزء منه والذى هو عالمنا جميعاً^(*) .

(*) بعد أن نُشر هذا المقال فى صحيفة أخبار اليوم فى ٤/١١/٢٠٠٦م كتب الأستاذ صلاح منتصر مقالاً فى عموده اليومي بصحيفة الأهرام فى ٢٧/١١/٢٠٠٦م تحت عنوان « التكنين المنقوص » جاء فيه ما يلى :

كل مسلم فى قرارة نفسه يعرف أن الأمة الإسلامية تعاني تخلفاً لا تخطئه العين فى شتى أنحاء العالم الإسلامى حتى فى بعض الدول الإسلامية التى لديها وفرة فى الثروة ..

هذه الحقيقة كنت أتصور أن تكون محور اهتمامات الأمة الإسلامية والموضوع الرئيسى فيما تعقده من مؤتمرات وأبحاث ودراسات لكن - حتى ذلك - يتضح أننا تخلفنا فيه .

ولكن لماذا ؟ من القراءات الجميلة التى قرأتها فى هذا الموضوع مقال كتبه الدكتور محمود حمدى زقزوق كمواطن مسلم نشره فى أخبار اليوم (عدد ٤ نوفمبر) أتمنى لو قرأه كل مسلم وكل خطيب فى مسجد ، واستقى منه هذه المعانى والمفاهيم التى ألخصها فيما يلى :

١ - الأمة الإسلامية لا ينقصها الحماس الدينى المتزايد فى شهر رمضان يتوافد الملايين على أداء العمرة ، وفى كل المساجد يواظب الآلاف على صلاة التراويح خلف الأئمة لفترات تصل إلى ثلاث ساعات كل ليلة بالإضافة إلى التهجد والاعتكاف ونرف الدموع الغزيرة خلف الأئمة وهم يبتهلون بأدعيتهم إلى الله .

٢ - إن هذا الحماس الدينى فى رمضان ومواسم الحج وأداء الفرائض وغير ذلك من الصور التى تؤكد حرص الملايين على العمل لدينهم ، لا يقابله نفس الحماس من نفس هؤلاء الملايين للعمل لدنياهم التى يعيشون ونعيش فيها ، والتى خلقها الله لنا لنعمرها =

= بالخير ونثريها بالعلم ونبنيها بالعمل وننشر فيها الأمن والسلام للبشر جميعاً .

٣ - إن مشكلة ملايين المسلمين انسحابهم من الدنيا والانكفاء على الذات والاستغراق في العبادة متصورين أن هذا يؤدي إلى رضا الله والفوز بالآخرة بينما الإسلام - وهو دين الوسطية والاعتدال- لا يريد منا أن نعمل للآخرة على حساب الدنيا ، ولا أن نعمل للدنيا على حساب الآخرة ، وإنما نعمل من أجلهما معاً في تناسق وانسجام . يقول الحق سبحانه تأكيداً لذلك :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [سورة القصص : ٧٧].

٤ - لقد أدى ذلك الانقسام في حياة المسلمين بين العمل للدين والعمل للدنيا، واختزال الإسلام في «تدين منقوص» يقتصر على الشعائر دون أى صلة بينها وبين العمل ، إلى تخلف المسلمين ، ولن يتحقق للمسلمين مكانهم في العالم إلا بالعلم والعمل للدين والدنيا على السواء .

٥ - باختصار شديد : التدين الكامل هو الموازنة بين احتياجات الآخرة واحتياجات الدنيا ، وغير ذلك يكون التدين منقوصاً ! .

وقد أعادت صحيفة Egyptian Gazette نشر مقال الأستاذ صلاح منتصر بالإنجليزية .

(٢)

الفهم المغلوط للدين

فى خضم النزاعات التى شهدتها التاريخ الإسلامى زمن الفتنة الكبرى التى بدأت أثناء خلافة عثمان بن عفان واستمرت فى خلافة علىّ رضى الله عنهما، والحروب الدموية التى خاضها الخوارج ضد الإمام علىّ وأنصاره ، سأل بعض الخوارج من العراق عبد الله بن عمر عن الحكم الشرعى فى الصلاة فى ثوب علق به دم البراغيث . فقال : عجبا لكم يا أهل العراق ، تقتلون الحسين بن علىّ وتسالون عن دم البراغيث ؟! فهم يرتكبون أعظم الجرائم ويستحلون قتل النفس التى حرّم الله قتلها إلا بالحق ثم يتمسكون بالأمور الهامشية ويحرصون على معرفة الحكم الشرعى فيها وكأنها هى الدين .

وفى حادثة أخرى قتل الخوارج عبد الله بن خباب بن الأرت وبقروا بطن امرأته وكانت حاملاً لا لسبب إلا لأنه لم يكن يعتقد معتقدهم فى الإمام علىّ ، فقد أثنى عليه عندما سألوه عنه . وبعد أن فرغوا من فعلتهم ذهبوا إلى صاحب نخل ليشتروا منه نخلة — وكان رجلاً نصرانياً شهد ما اقترفوه — فقال: هى لكم، أى: هذه هدية منى إليكم، فكان ردهم: لا، نحن لا نأكل أموال الناس

بالباطل، والله ما كنا لنأخذها إلا بثمن. فقال الرجل: ما أعجب هذا ! أنقتلون مثل عبد الله بن خَبَّاب ولا تقبلون منا نخلة؟^(١) .

ومن المعروف عن الخوارج مواظبتهم على صلاتهم وصيامهم وقيامهم وحرصهم الشديد على التمسك بشعائر الدين الظاهرية . وعلى الرغم من ذلك كانوا يستحلون قتل الأبرياء من خصومهم الذين يختلفون معهم في رأيهم في عليّ عليه السلام .

ويعبر هذان المثالان عن مدى الانفصام الحاد لدى هؤلاء بين التدين والسلوك . فالإسلام ليس مجرد شعائر تؤدي وإنما هو سلوك شامل لكل جوانب الحياة ، هو قيم تترجم إلى أعمال تغرس الخير في كل مكان ، هو حفاظ على الحرمات وعلى رأسها حرمة النفس الإنسانية .

ولا يزال هذا السلوك غير السويّ سائداً لدى بعض جماعات من المسلمين الذين يحرصون على حفظ القرآن الكريم وأداء الشعائر والالتزام الشديد بالشكليات التي لا أهمية لها في الدين ، ومع ذلك يسلكون مسلك أسلافهم في قتل معارضيتهم في الرأي بدم بارد دون رحمة أو شعور بالذنب .

وهذا الانفصام الحاد في سلوك هؤلاء وأمثالهم يمثل مشكلة كبرى في حياة الأمة الإسلامية. وتتمثل هذه المشكلة في اختزال

(١) راجع : تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبى زهرة ص ٦٢ ، ٦٣

الإسلام فى بعض الجوانب الشعائرية ، وإهمال جوانب أخرى أكثر أهمية وأشد إلحاحاً وأعرق تأثيراً فى حياة الأمة .

وهناك — للأسف الشديد — بعض من لديهم استعداد لإثارة معركة كبرى من أجل قضية لا أهمية لها ظناً منهم أنها هى الدين . ومن أمثلة ذلك قضايا النقاب والسواك والجلباب القصير ومقدار اللحية وما شاكل ذلك من أمور هامشية تثار من أجلها معارك تبدد أوقات الأمة وتشغلها عن قضاياها المصيرية .

وأذكر أننى دخلت ذات مرة أحد المساجد لصلاة الجمعة فوجدت رجلاً يبدو من مظهره أنه متدين ، ولكنه — للأسف الشديد — كان يثير مشكلة لا لزوم لها ، وكان منفعلًا بدرجة حادة محدثًا ضوضاء فى المسجد تشوش على المصلين . وفى غمرة غضبه راح يقسم بأيمان مغلظة أنه لن يصلى فى هذا المسجد لأن الصلاة فيه باطلة ، وسبب البطلان — فى نظره — يرجع إلى أن أذان الظهر يرفع فى المسجد يوم الجمعة مرتين : أولاًهما عندما يحين وقت الظهر ، وثانيهما بعد أن يصعد الإمام المنبر . وهذا فى رأيه حرام وباطل ومخالف للسنة . وقد حاول المصلون أن يهدئوا من ثورته دون جدوى . وخرج الرجل من المسجد دون أن يصلى .

والمعروف أن هذا الأذان الثانى أمر قائم منذ عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان . وليس فيه أى خروج على تعاليم الإسلام ولا ضرر فيه على الدين والمتدينين . فالأذان أولاً وأخيراً شكل

من أشكال الذكر لله ، وفى الوقت نفسه تذكير للناس بدخول وقت الصلاة . وكان عثمان بن عفان قد لاحظ أن بعض الناس لا يسمعون الأذان الأول فأمر بالأذان الثانى ليسمعه من لم يسمع الأذان الأول ، وأقره الصحابة على ذلك ، وظل تقليدًا حميدًا لا ضرر منه حتى الآن . ولكن ضيق الأفق من شأنه أن يولد التعصب والتشدد الممقوتين ، فى حين أن الإيمان الحق من شأنه أن يشيع التسامح والألفة والمحبة بين الناس .

ولا يدرك هؤلاء المتشددون أن هناك سلمًا للأولويات . فالسنة غير الفريضة والمندوب غير الواجب ، والضرورات لها أحكام تقتضيها ، والدين قائم على التيسير ، ومصالح الأمة لها أولوياتها ، ودرء المفاسد مقدّم على جلب المصالح . ومقاصد الشريعة يجب مراعاتها ولا يجوز أن نختار من بينها ما يحلو لنا وفقًا لأهوائنا وتوجهاتنا الفكرية أو السياسية أو الحزبية أو غيرها .

ومن هنا فإن المجتمع الإسلامى فى حاجة ماسة إلى إعادة ترتيب هرم الأولويات الذى قلبه المتشددون الجاهلون رأسًا على عقب ، فأساءوا إلى الإسلام والمسلمين .

إن الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاق وحضارة ، ولا يجوز بأى حال من الأحوال اختزال الإسلام فى عنصر واحد أو أكثر وإهمال بقية العناصر ، فهذا يُعد جنائية فى حق الدين والدنيا

على السواء . فالإسلام كل لا يتجزأ ، والقرآن الكريم حذرنا من أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر بالبعض الآخر فى قوله تعالى :

﴿ أَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ^ج

فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا^ط وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ^{هـ} ﴾^(١).

لقد جاء فى بعض الأحاديث النبوية أن " امرأة دخلت النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض " ^(٢) على الرغم مما كان يبدو من صلاح هذه المرأة وتقواها . وقد ذكر للنبي ﷺ شأن امرأة تصوم وتصلى وتزكى ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها، فقال : هى من أهل النار، لأن الدين كما هو شعائر مفروضة هو أيضا أخلاق والنبي ﷺ نفسه يقول :

[إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ] ^(٣) .

والذين ينادون بتطبيق الشريعة — على سبيل المثال — لا يفهمون من ذلك إلا إقامة الحدود المعروفة . والحق أن إقامة

(١) سورة البقرة : ٨٥ .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه البخارى فى كتاب « الأدب المفرد » .

الحدود أمر ضرورى يدخل فى إطار تطبيق الشريعة ، ولكن الحق أيضا أنه ليس كل الشريعة ، ولا يمثل أكثر من ٥% من الشريعة . فهل يجوز اختزال الإسلام فى الحدود التى قال عنها النبى ﷺ :

[ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فإن وجدتم للمسلم مخرجاً فخلوا سبيله ، فإن الإمام لأن يخطئ فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة] (١) .

وقد كان ذلك واضحاً تماماً فى تعامل النبى ﷺ مع ماعز الذى جاءه معترفاً باقترافه جريمة الزنا طالباً تطبيق حد الرجم عليه . والاعتراف - كما هو معروف - سيد الأدلة . ولكن النبى ﷺ أعرض عنه فى محاولة لإثناؤه عن اعترافه . وعلى الرغم من ذلك أصر ماعز على اعترافه المرة تلو المرة ، حتى قال له أبو بكر: لقد اعترفت ثلاث مرات ولو اعترفت للمرة الرابعة سيقم النبى عليك الحد ، فاعترف للمرة الرابعة ، فأمر النبى ﷺ بإقامة الحد عليه . وعندما بدأ تطبيق الحد عليه هرب فنتبعه الصحابة ورجموه حتى مات . وعندما حكى ذلك للنبى ﷺ بدا عليه الغضب مشيراً إلى أنه كان الأولى تركه بعد هروبه ، لأن هذا الهروب - فى حد ذاته - يُعد رجوعاً عن اعترافه يُسقط عنه الحد .

(١) رواه الترمذى والحاكم والبيهقى .

إن الإسلام ليس مجرد صيغ محفوظة ولا طقوس معينة ، وإنما هو دين باعث للهمم محرك للعزائم دافع إلى تحقيق الخير لكل الناس . وقد كان الصحابة إذا حفظ الواحد منهم عشر آيات من القرآن لا يغادرها إلى غيرها إلا بعد أن يعمل بما جاء فيها . وفى العالم الإسلامى اليوم ملايين من حُفَاط القرآن الكريم ، ولم يكن كل الصحابة يحفظون القرآن الكريم كله ، ولكنهم كانوا يدركون أهمية العمل بما جاء فى القرآن الكريم .

فماذا فعلنا نحن بهذا الكتاب الكريم ؟

لقد اختزلنا القرآن الكريم فى بعض الأمور المظهرية بجعله كتاباً نتبرك به ونضعه فى مكان بارز فى البيوت أو فى أماكن العمل ، أو فى السيارات ، ونقرأ به على الأموات وفى المناسبات ، ونطرب لصوت هذا القارئ أو ذاك ، وما لذلك كله وأمثاله أنزل القرآن الكريم .

لقد أنزل القرآن ليكون منهج حياة للمسلمين يشتمل على التعاليم والقيم التى تدفع إلى الارتقاء بالحياة والنهوض بها ونشر الخير فى أرجائها ، وكل ذلك من شأنه أن يودى إلى زيادة القرب من الله والفوز برضاه .

إن الأولوية في الدين تتمثل في العمل ، أى : فى ترجمة القيم إلى أفعال والتعاليم إلى سلوك ، « فالإيمان ليس بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل » .

ومن هنا يخبرنا النبى الكريم ﷺ بأن الله قد غفر لرجل سقى كلباً اشتد به العطش فى صحراء قاحلة. وإذا كان هذا جزاء مَنْ قَدَّمَ الخير لحيوان فما بال من يقدم الخير للإنسان ؟

إننا فى حاجة إلى تصحيح فهمنا للإسلام من أجل القضاء على الأفكار الخاطئة والمفاهيم المغلوطة التى ترسّخت فى النفوس منذ أزمان بعيدة حتى تستقيم علاقاتنا بالله وبالأخرين وبأنفسنا وبالعالم الذى نعيش فيه .

* * *

(٣)

الإسلام والإرهاب (١)

من الآفات المنتشرة على نطاق واسع فى عصرنا الحاضر الخوض فى أمور الدين دون علم أو فقه . فالبعض حين يقرأ كتاباً أو بعض كتاب عن الدين ، أو يحفظ قدرًا قل أو كثر من القرآن الكريم ، أو يحفظ بعض الأحاديث النبوية ، يعتقد أنه أصبح مؤهلاً للحديث عن الدين والإفتاء فيه . وكمثال صارخ على ذلك ما سمعته من بعض هؤلاء ذات مرة يقول : لماذا نخجل من نسبة الإرهاب إلى الإسلام ؟ إن القرآن قد تحدث عن الإرهاب وضرورة الاستعداد لإرهاب العدو .

فما هى قصة هذا الإرهاب الإسلامى المزعوم ؟

لقد تحدث القرآن الكريم عن ضرورة الاستعداد لقتال الأعداء دفاعاً عن النفس ، وهذا ما فعلته وتفعله كل دولة فى سابق الأزمان وحاضرها وكذلك فى مستقبل الأيام . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ

الْخَيْلِ تَرْهَبُونَ بِهِمْ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (١) .

(٥) نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ٢٠٠٦/١٢/٢ م .

(١) سورة الأنفال : ٦٠ .

والفعل (رَهَبَ) بكسر الهمزة معناه خاف — كما توضح ذلك المعاجم العربية — ، فمعنى (ترهبون به عدو الله وعدوكم) أى : تخوفون به عدو الله وعدوكم — وهم كفار مكة — فلا يتجروون عليكم أو يفاجئونكم بالعدوان. فالإرهاب المقصود هنا ليس عدواناً على أحد بأى حال من الأحوال ، وإنما هو بمثابة تخويف لردع العدو عن العدوان على المسلمين ، وبمعنى آخر : هو ضرورة اتخاذ إجراءات احتياطية وقائية لضمان أمن المسلمين ضد أى عدوان خارجى . وهذا معنى يختلف تماماً عن معنى الإرهاب اليوم الذى يعنى الترويع والقتل والتدمير والعدوان على الأمنيين والمسلمين كما هو حادث بالفعل فى عالمنا المعاصر .

وتأكيداً لهذا الفرق الحاسم بين المعنيين نجد الآية التالية للآية السابقة تتحدث عن السلم والمسالمة : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا ﴾^(١). أى : إذا مال أعداؤكم إلى المسالمة والمصالحة فاقبل ذلك منهم . وقد كان هذا هو ما صنعه النبى ﷺ فى صلح الحديبية وغيره . ولم يكن الإسلام فى يوم من الأيام يميل إلى الحرب إلا إذا فرضت عليه .

(١) سورة الأنفال : ٦١ .

والإسلام لا يقبل مطلقاً ترويع الأمنيين والاعتداء على الأبرياء والمسالمة ، ويقرر في صراحة ووضوح أن الحفاظ على النفس الإنسانية يُعد أحد المقاصد الأساسية للشريعة الإسلامية ، ومن هنا يجعل قتل النفس بغير حق بمثابة قتل للإنسانية كلها :

﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ^(١) .

ومن ذلك يتضح أن الإسلام يرفض الإرهاب — بمعناه الشائع اليوم — بكل صوره وأشكاله رفضاً قاطعاً لأنه عدوان ، والله لا يحب المعتدين . وفي آية الإنز بالقتال لرد العدوان يؤكد القرآن الكريم على ذلك تأكيداً واضحاً في قوله تعالى :

﴿ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ^(٢) .

ومن هنا فإن نسبة الإرهاب إلى الإسلام أو وصف الإرهاب بأنه إسلامي — كما يفعل خصوم الإسلام — لا مكان له في هذا الدين الذي جاء رحمة للعالمين .

(١) سورة المائدة : ٣٢ .

(٢) سورة البقرة : ١٩٠ .

إن مشكلة عالمنا المعاصر مع الإرهاب أنه قد فشل حتى الآن فى تحديد دقيق لمفهوم الإرهاب ، وقد أدى ذلك إلى الخلط الشائن بين الإرهاب والدفاع عن الحقوق المشروعة للشعوب . فأصبح المدافع عن حقوقه إرهابيًا وأصبح ينظر إلى المُعتدى على أنه هو الضحية . وأوضح مثال على ذلك ما جرى على أرض فلسطين .

ويشهد العالم اليوم ما يسمى بالحرب على الإرهاب ، وقد أدت هذه الحرب التى تقودها القوى العظمى فى العالم إلى توسيع دائرة الإرهاب على نحو غير مسبوق . وسياسة الحرب على الإرهاب سياسة فاشلة تمامًا لسبب بسيط وهى أنها تعالج الظاهرة من سطحها ولا يريد أصحابها أن يتعرفوا على الأسباب الحقيقية للإرهاب . وقد يكون ذلك أمرًا متعمدًا حتى يعيش العالم فى رعب مستمر وبذلك تسهل السيطرة عليه وعلى مقدراته .

إن الإسلام لم يكن فى يوم من الأيام على مدى تاريخه كله مساندًا بأى شكل من الأشكال للإرهاب أو العدوان على أى إنسان بصرف النظر عن دينه أو جنسه أو لونه . فالإنسان بنیان الله ، ولعنة الله مستحقة على من يهدم هذا البنیان — كما ورد هذا المعنى فى حديث نبوى شريف — . والإنسان فى نظر

الإسلام خليفة الله في الأرض، كُلِّفَ الله بعمارتها وصنع الحضارة فيها وإقامة موازين العدل في أرجائها . وقد كَرَّمَ الله الإنسان وفضَّلَه على بقية المخلوقات. ومن يكرمه الله لا يجوز لأى كائن أن يمتن كرامته أو يمسه بسوء .

وعلى الرغم من هذه الحقائق الدامغة فى المصادر الأساسية للإسلام فإن الإسلام يُساء إليه من جانبين : من جانب خصومه الذين يلصقون به تهمة الإرهاب ظلماً وعدواناً ، ومن جانب بعض أبنائه الذين يفسرون بعض نصوصه على هواهم ، ويقتطعون بعض آيات القرآن من سياقها ، ويبنون عليها ما يقومون به من أعمال حمقاء لا تمت إلى الإسلام بصلة .

إن مقاصد الشريعة الإسلامية واضحة وضوح الشمس وهى : الحفاظ على النفس والعقل والدين والمال والنسل . وهذه المقاصد الخمسة تُعد بمثابة خطوط حمراء لا يجوز المساس بها أو الاستهانة بشأنها . والإسلام جاء رحمة للعالمين كما ينص على ذلك القرآن الكريم :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) .

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

ومفهوم الرحمة ومشتقاتها من أكثر المفاهيم التي وردت في القرآن الكريم . وسور القرآن الكريم - كما هو معروف - تبدأ بالبسملة: " بسم الله الرحمن الرحيم " . وقد وصف الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام بأنه ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

إن التجنى على الإسلام لا يأتي فقط من خصوم الإسلام ، وإنما يأتي أيضاً من بعض الجاهلين من أتباعه الذين يفسرون تعاليمه وفقاً لأفهامهم المريضة وعقولهم السقيمة فيضلون أنفسهم ويضلون غيرهم أيضاً .

ونحن مطالبون بإبراز تعاليم الإسلام في صفائها ونقاها بعيداً عن أى تحريف أو تشويه ، ومطالبون أيضاً بأن نكون نماذج حية لقيم الإسلام النبيلة وتعاليمه السامية ، وبذلك نصون ديننا من التحريف ونقدمه في الوقت نفسه للآخرين على حقيقته من مصادره الأصلية ، ونثبت لهم أن بناء السلام في العالم لا يمكن أن يتحقق باستبعاد الإسلام والمسلمين أو تهميش دورهم ووصفهم بتهمة لا أساس لها ، بل تتناقض مع تعاليم الإسلام ولا تتفق مع أهدافه ومقاصده .

(١) سورة التوبة : ١٢٨ .

إن الإسلام دين السلام . وقد اشتق لفظ (الإسلام) من الأصل نفسه الذى اشتق منه لفظ (السلام) ، ومن أسماء الله (السلام) ، وتحية المسلمين هي (السلام) ، والمسلم يختم صلواته الخمس كل يوم بالسلام يميناً وشمالاً ، وهذا رمز لأمنيات السلام لنصف العالم عن يمينه ولنصفه الآخر عن شماله .

إن العالم - إذن - فى حاجة إلى الإسلام لترسيخ أسس السلام والاستقرار فى هذا العالم الذى هو عالمنا جميعاً .

* * *

(٤)

تجارة الشعارات الدينية^(*)

لا جدال فى أن للدين منزلة كبيرة فى نفوس المؤمنين وتأثيراً كبيراً على سلوك المتدينين. والإيمان يعنى صلة حميمة بالله خالق الكون كله بما فيه ومن فيه. ومن هنا فإن كل ما يتصل بالدين من شأنه أن يذكر الإنسان بهذه الصلة الإيمانية المنزّهة عن كل غرض . والمشاعر الإيمانية تستمد قوتها من قوة هذه الصلة ، وتخبو جذوتها عندما تضعف هذه الصلة . ويترتب على ذلك بطبيعة الحال أسلوب التعامل مع قضايا الدين إيجاباً أو سلباً .

ومن الظواهر السلبية التى انتشرت فى الفترة الأخيرة على نطاق واسع ظاهرة استخدام الشعارات الدينية استخداماً لا يتناسب مع ما للدين من قدسية وجلال فى النفوس . وقد وصل الأمر فى ذلك إلى حد بعيد كل البعد عن أى شكل من أشكال الذوق أو الاحترام للدين ، بل يمكن القول فى صراحة ووضوح: إن الأمر قد وصل إلى حد الاتجار بالشعارات الدينية لأغراض لا صلة لها بالدين .

(*) نشر هذا الموضوع بصحيفة الأهرام فى ١٦ ديسمبر ٢٠٠٦ م .

والذين يستخدمون هذه الشعارات يعرفون ما للدين من عمق عميق فى النفوس وما له أيضاً من تأثير على السلوك . ومن هنا فإنهم إذا أرادوا أن يروّجوا لتوجهاتهم أو لتجاريتهم فإنهم يلجأون إلى الدخول على الجمهور من مدخل الدين ، وهذا أمر يُعد امتهاناً للدين وتلاعباً بمقدساته .

وحتى لا يظل حديثنا فى مجال التجريد نود أن نشير إلى بعض الأمثلة الصارخة فى هذا المقام . فالمؤمنون يعرفون أن مفهوم التقوى من المفاهيم الدينية التى تعنى القرب من الله والامتنال لأوامره والبعد عن نواهيه . ومن هنا يوصف بها الذين تنطبق عليهم هذه الشروط، والذين يصفهم القرآن الكريم بالمتقين . والله سبحانه وتعالى يبين لنا فى أول سورة البقرة أن القرآن جاء ليكون « هُدى للمتقين » . ولمفهوم التقوى وقعه المؤثر فى النفوس، وهيبته فى القلوب . ولكن البعض ينقل هذا المفهوم الذى يتصف به القريبون من الله إلى شىء آخر تماماً يتصل بالمال والتجارة فيطلقون على أحد البنوك « الإسلامية » اسم « بنك التقوى » .

وهذا الإطلاق فى هذا المجال يُعد امتهاناً للمفهوم الدينى للتقوى . فالمقصود من هذا الإطلاق هو جذب الناس للإقبال على تجارة معينة ، أو مؤسسة مالية محددة لأغراض تجارية لا صلة

لها بهذا المفهوم الدينى الذى ينبغى أن نحافظ عليه ونضعه فى مكانه الصحيح .

وتواصل مع هذا المسلسل فى إطلاق الشعارات الدينية لأغراض تجارية إطلاق البعض مفهوم " التوحيد " على محلات لبيع أزياء السيدات والأطفال ، أو على بعض محلات عصير الفواكه ، أو على بعض معارض السيارات . وهذا كله موجود للأسف الشديد ، وكان ينبغى على الإدارة المحلية التى تمنح التصاريح للأعمال التجارية أن ترفض منح التراخيص للمحلات التجارية التى تستخدم هذا المفهوم الدينى أو غيره من المفاهيم الدينية . ولست أدرى ما هى الصلة بين ذلك كله وبين التوحيد الذى هو السمة التى تميز الدين الإسلامى بوصفه دين التوحيد الذى لا شائبة فيه ، أى : توحيد الألوهية بلا شريك كما تعبر عن ذلك سورة الإخلاص :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ

يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ ﴾ (١) .

ويلجأ البعض أيضاً إلى كتابة الركن الأول للإسلام على الزجاج الخلفى لسيارته وهو « لا إله إلا الله محمد رسول الله »

(١) سورة الإخلاص : ١-٤ .

ويضيف إلى ذلك سيفاً كبيراً ، الأمر الذى يوحى بأن الإسلام قد انتشر بالسيف ، تأكيداً للمقولة التى يروجها خصوم الإسلام . ولست أدرى الهدف من وراء ذلك . هل يريد هؤلاء أن يعلنوا للملأ أنهم مسلمون ومستعدون لحمل السيف للدفاع عن مقدسات الإسلام ؟ . وهل شكك أحد فى إسلامهم حتى يلجأوا إلى ذلك ؟ إن هذا لون من العبث بالشعارات الدينية . ويمتوى مع ذلك كله استخدام الشعارات الدينية لتحقيق مآرب سياسية ، ومغانم دنيوية.

وهناك أمثلة عديدة لإساءة استخدام الشعارات الدينية لأغراض تجارية . ولا ننسى موجة توظيف الأموال فى العقود الأخيرة التى أطلقها البعض تحت شعارات دينية واستطاع أصحابها أن يستولوا على أموال الكثيرين من المواطنين الذين خدعتهم المظاهر الدينية والشعارات التى أطلقها هؤلاء للاستيلاء على أموال الناس . ثم تكشفت الحقائق وتبين الخداع وزيف الشعارات وضاعت أموال الناس هباءً منثوراً .

وهكذا وصل بنا الحال إلى التلاعب بالدين وخداع الجماهير بشعارات دينية . ويعتقد البعض أنه وحده أو الطائفة التى ينتمى إليها هم المتدينون حقاً وهم القريبون من الله ، اعتماداً على مظاهر خادعة لا صلة لها بجوهر الدين .

إن الدين ليس أزياء معينة ، وليس لحى تطول أو تقصر ،
وليس نقاباً ولا طقوساً ، فالله لا ينظر إلى صورنا وأشكالنا
ولكن ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا - كما ورد في الحديث النبوى
الشريف - . وتقوى الله والقرب منه من المسائل التى تتصل
بباطن الإنسان، وليست فى حاجة إلى الإعلان عنها برفع شعارات
معينة ، أو ارتداء ملابس لها مواصفات خاصة . فمن الأحاديث
التي وردت عن النبى ﷺ قوله :

[كُلْ مَا شِئْتَ وَابْسُ مَا شِئْتَ فى غير مَخِيلَةٍ (أى : كبر)
ولا سَرَاف] ^(١) .

[وَرُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ لو أَقْسَمَ على الله لأُبْرَهُ] ^(٢) .

فأين هذا من سلوك رافعى الشعارات الدينية ؟. إن الذى
سيحكم بين الناس يوم القيامة هو الله الذى لا يعزب عن علمه
مقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .

وهناك لدى البعض رغبة جامحة فى الإعلان عن تدينهم
والظهور أمام الناس بمظهر الإنسان المتدين ، ولهم أن يفعلوا
ذلك كما يشاءون، ولكنهم من خلال هذا المظهر نجدهم ينظرون

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده برواية أخرى تقول : [كلوا واشربوا
وتصدقوا والبسوا فى غير إسراف ولا مخيلة] .

(٢) متفق عليه .

نظرة متدنية إلى غيرهم من الناس الذين لا يصنعون مثل صنيعهم ، وكأنما القرب من الله قد أصبح من احتكار فئة معينة أعطت لنفسها الحق في الحكم على الآخرين . وهذا في حد ذاته تناول على الله سبحانه الذي له وحده الحق في الحكم على الناس - كل الناس - من كل الأديان والنحل كما جاء ذلك في القرآن الكريم :

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١) .

إن هذا الاستغلال السيئ للشعارات الدينية من أجل أغراض دنيوية من الأمور المستهجنة التي يرفضها الدين الحنيف . والإسلام لا يعير أدنى اهتمام للشكليات والمظاهر الخادعة . فالأعمال بالنيات ولكل أمرئ ما نوى - كما جاء في الحديث النبوى الشريف . والمطلع على هذه النيات هو الله ، ولسنا مطالبين بالبحث عن نوايا الناس والتفتيش في ضمائرهم . فالله وحده هو الذى يعلم ما نخفى وما نعلن (٢) .

(١) سورة الحج : ١٧ .

(٢) ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٨] .

إن الإسلام يمقت النفاق والمنافقين ويحرّم الرياء والمباهاة الخفية أو الظاهرة. وقد أدان الإسلام صنيع هؤلاء الذين يتباهون بإسلامهم ويعتقدون أنهم قدموا بذلك منة للنبي عليه الصلاة والسلام ، وذلك فى قوله تعالى:

﴿ يَمْتُونَنَّ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْتُونَنَّ عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ^ط

بَلِ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(١).

إن استغلال البسطاء من الناس برفع شعارات دينية للتأثير عليهم واستمالتهم للتعامل معهم وحدهم بوصفهم الملتزمين بالدين - هذا الاستغلال يعد جريمة دينية . والدين برىء من صنيعهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

إن الدين تعاليم سامية وقيم نبيلة وسلوك متحضر وعمل صالح مجرد عن الهوى والغرض. أما اتخاذ الدين وسيلة للدعايات الرخيصة لسلعة أو مؤسسة معينة أو حزب سياسى أو ما شاكل ذلك ، فهذا سلوك ينبغى أن ننزّه الدين عنه ، ولا نقحمه فى هذا المستنقع الذى ثبت للجميع أن الدين برىء منه تماماً كما حدث فى شركات توظيف الأموال .

* * *

(١) سورة الحجرات : ١٧ .

(٥)

تغيب العقل^(*)

لقد خلق الله الإنسان وخلق معه ومن أجله بقية الكائنات مسخرات له لإعمار الكون وصنع الحضارة فيه ، ولكن القرآن الكريم قد أشار في الوقت نفسه إلى حقيقة مهمة تتمثل في أن الله قد خلق الإنسان ضعيفاً بالقياس إلى معظم الكائنات. فكيف أمكن له أن يصبح سيداً في الأرض ومسيطرأ على غيره من الكائنات؟ أليست هذه مفارقة غريبة ؟

إن الأمر هنا في الحقيقة ليس لغزاً محيراً ولا سرأ مغلقاً ولكنه يحتاج فقط إلى شيء من التوضيح للكشف عن مواطن الضعف ومواطن القوة لدى الإنسان للتعرف على الإمكانيات التي أهلته وحده من بين كل الكائنات لتولّي دور القيادة في هذا العالم .

ولنبداً أولاً بشرح أهم نقاط الضعف لدى الإنسان بالمقارنة بغيره من الحيوانات . إن مثل هذه المقارنة ستكشف لنا من غير شك مدى ضعف الإنسان تأكيداً للآية الكريمة : ﴿ وَخُلِقَ

(*) نشر هذا الموضوع في صحيفة أخبار اليوم في ١٣ يناير ٢٠٠٧م .

أَلَا نَسْنُ ضَعِيفًا^(١) . فعندما نقارن الإنسان بكثير من الحيوانات نجد أنها تتفوق عليه فى كثير من الصفات والميزات . فطفولة الإنسان طويلة بالقياس إلى بقية الحيوانات ، وهو فى حاجة إلى من يرعى شئونه لسنوات حتى يستطيع أن يستقل بنفسه ، فى حين أن هناك حيوانات تستطيع أن تستقل بنفسها بعد ساعات من الولادة .

وفضلاً عن ذلك فإن القدرات البدنية للإنسان محدودة بصفة عامة بالقياس إلى الكثير من الحيوانات التى زودها الله بقدرات حسية على السمع والبصر والشم والعذو تفوق ما لدى الإنسان بمراحل ، كما أن هناك حيوانات تستطيع الدفاع عن نفسها بما لديها من مخالب وأنياب ولا يستطيع الإنسان أن يتغلب عليها فى مواجهة مباشرة . ومن الميزات التى اختص الله بها الحيوانات قدرتها على تحمل تقلبات الجو من الحر والبرد ، فى حين أن الإنسان إذا ترك عارياً تحت وطأة التقلبات الجوية فإنه يموت لا محالة .

فالحيوانات - إذن - والحال كذلك - تتفوق بصفة عامة على الإنسان فى معركة الحياة ، ومن هنا استطاعت أن تحمى

(١) سورة النساء : ٢٨ .

نفسها وتحافظ على نوعها منذ بدء الخليقة . ولو اقتصر الأمر على هذا النقص الحاد فى قدرات الإنسان مقارنة بالحيوانات لكان قد انقرض منذ زمن طويل .

وعلى الرغم من هذا القصور الواضح فى قدرات الإنسان فإنه قد استطاع أن يتغلب على كل الكائنات الأخرى ويخضعها لسيطرته ، واستطاع أن يغير وجه الحياة على الأرض ، وأن يصنع حضارات متتالية على مدى التاريخ ، وأن يحدث ثورات هائلة فى عالم الصناعات والاتصالات والمعلومات والتكنولوجيا، ولم يكتفِ بأن يكون مجال نشاطه مقتصرأ على الكوكب الأرضى ، بل راح يبحث فى عالم الفضاء ويفتش عن أسرارهِ . فكيف استطاع الإنسان أن يفعل ذلك كله ويتغلب على كل الصعاب حتى وصل إلى ما وصل إليه ؟

إنه إذا كانت جوانب ضعفه متمثلة فى أمور مادية فإن جوانب قوته تتمثل فى أمر واحد لا يتوافر لأى كائن آخر فى هذا الوجود وهو العقل الذى هو أجلُّ نعمة أنعم الله بها على الإنسان . والعقل هو أثر من آثار النفخة الروحية الإلهية فى الإنسان والتي من أجلها استحق التكريم الإلهى والتفضيل على غيره من الكائنات . وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى خطاب موجه إلى الملائكة :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ،
سَاجِدِينَ ﴾ ^(١).

إن جوهر الإنسان - إذن - هو العقل الذى يميز به الخير من الشر والنافع من الضار ، والذى به يهتدى إلى خالق الكون ويدرك أسرار الخلق ، وجلال الخالق ، ويتعرف على سنن الله فى الكون ، ويرشد إلى كل وجوه الخير ، ويصل إلى شتى المعارف والعلوم . ومن هنا وصفه حجة الإسلام الغزالي بأنه «أنموذج من نور الله» كما وصفه الجاحظ بأنه «وكيل الله عند الإنسان» .

ومن أجل ذلك فإن عدم استخدام العقل يُعد تنازلاً من الإنسان عن إنسانيته ، ويُعد فى الوقت نفسه من أكبر الذنوب والخطايا التى يرتكبها الإنسان فى حق نفسه وفى حق الله ، والتى تؤدى به إلى موارد التهلكة ، كما يتضح ذلك من القرآن الكريم الذى هو دعوة واضحة إلى استخدام العقل وممارسة التفكير والتأمل فى آيات الله فى الكون وفى الإنسان . ولذلك يستخدم القرآن الكريم فى مئات الآيات مفاهيم تؤكد هذا المعنى حين يوجه الخطاب إلى قوم يعقلون أو يتفكرون أو يفقهون أو يتدبرون أو يوقنون أو يعلمون أو يبصرون أو يسمعون أو

(١) سورة ص : ٧٢ ، سورة الحجر : ٢٩ .

يذكرون . واعتماداً على ما ورد في القرآن الكريم في هذا الشأن ألف المرحوم الأستاذ عباس العقاد كتابه القيم « التفكير فريضة إسلامية » .

وقد أدان الإسلام من يقلدون غيرهم تقليداً أعمى دون تفكير، أى : دون استخدام لعقولهم . ورفض النبي ﷺ التقليد بشدة في قوله : [لا يَكُنْ أَحَدُكُمْ إِمَّعَةً] ^(١)، أى : مقلداً للآخرين تقليداً أعمى ؛ فالتقليد يُعد عدواً للعقل الإنسانى .

ومن المقاصد الأساسية للشريعة الإسلامية حفظ العقل ، وهذا يعنى حمايته من أى مؤثرات سلبية تعمل على تغييبه وإلغاء دوره فى التفكير من ناحية، وتمهيد السبيل أمامه لممارسة وظيفته الأساسية فى الفهم والتفكير والتمييز بين الخير والشر والحق والباطل والصواب والخطأ ، والإبداع فى كل مجالات العلوم والفنون من ناحية أخرى .

ودعوة الإسلام لاستخدام العقل لا تقتصر على الأمور الدنيوية الحياتية . فهذا أمر مفروغ منه وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك حين قال : [أنتم أعلم بأمور دنياكم] ^(٢) . فالأمور الدنيوية

(١) سنن الترمذى .

(٢) سبق تخريجه .

تعتمد على البحث والدراسة والتجربة، وبمعنى آخر : تعتمد على العلم بأوسع معانيه . ومن أجل ذلك لا يضع الإسلام سدوداً ولا قيوداً على مسيرة البحث العلمى .

وقد امتدت سماحة الإسلام إلى الدعوة إلى استخدام العقل فى أمور الدين ، لأن الدين نفسه لا يُفهم إلا عن طريق العقل ، لاستنباط الأحكام الشرعية . وقد كان ذلك واضحاً فى إجابة معاذ بن جبل على سؤال النبى ﷺ له عندما أرسله قاضياً إلى اليمن : بماذا تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ فكانت إجابته : بكتاب الله ثم بسنة رسول الله . فإذا لم يجد فيهما اجتهد برأيه ، أى : استخدم عقله وتفكيره فى استنباط الحكم .

وفى هذا الصدد يقول الشيخ محمد عبده :

" إن العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين ، فالدين عُرفَ بالعقل ، ولا بد من اجتهاد يعتمد على الدين والعقل معاً حتى نستطيع أن نواجه المسائل الجديدة فى المدنية الجديدة ، ونقتبس منها ما يفيدنا ، لأن المسلمين لا يستطيعون أن يعيشوا فى عزلة ، ولا بد أن يتسلَّحوا بما تسلَّح به غيرهم ، وأكبر سلاح فى الدنيا هو العلم ، وأكبر عمدة فى الأخلاق هو الدين . ومن حسن حظ المسلمين أن دينهم يشرح صدره للعلم ويحضُّ عليه ، وللعقل

ويدعو إليه ، وللأخلاق الفاضلة التى تدعو إليها المدنية الحاضرة " (١) .

ومن سماحة الإسلام أيضاً وتشجيعه للاجتهاد أنه جعل للمجتهد الذى يجتهد ويخطئ أجراً واحداً وللذى يصيب أجران . وعلى أساس من الاجتهاد قامت مدارس الفقه الإسلامى المعروفة ، وازدهرت علوم الدين والدنيا على السواء .

ونظراً لأن النبى ﷺ قد أشار إلى ضرورة التجديد المستمر فى الأمور الدينية فى قوله :

[إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها] (٢) ..

فإن الاجتهاد كان الآلية التى قررها الإسلام للتجديد المستمر لمواكبة متطلبات الحياة وتطورات كل عصر . فقد كان الإسلام حريصاً كل الحرص على ألا تتجمد حياة المسلمين لأن ذلك مخالف لطبيعة الحياة وسنة الكون . فالتجديد قانون الوجود ، والمقابل للتجديد هو الجمود ، والجمود مَوَات . وقد جاء الإسلام ليكون ديناً للحياة بجميع أبعادها ، ومن هنا فإن القعود به عن

(١) راجع : زعماء الإصلاح للأستاذ أحمد أمين . ص ٣٣٧ - دار الكتاب العربى - بيروت - (دون تاريخ) .

(٢) رواه أبو داود .

مواكبة مستجدات الحياة يُعد ضد طبيعته ويمثل جهلاً فاضحاً
بتعاليمه ومقاصده .

وعلى الرغم من هذا الموقف الواضح للإسلام فى تأكيد
دور العقل وضرورة تحكيمه فى كل أمور الحياة وفى فهم أمور
الدين فإن هناك تيارات معينة فى المجتمع الإسلامى تعمل جاهدة
على تغييب هذا الدور الفاعل للعقل ، وإغراق المجتمع بكم كبير
من المطبوعات والشرائط والبرامج التى تشغل العقل بأمور
غيبية تشل فاعليته وتعطل وظيفته التى خلقه الله من أجلها .

وهذا التغييب للعقل يعطى الفرصة لهذه التيارات لتحقيق
أغراضها فى السيطرة على عقول الناس وتوجيههم الوجهة التى
تريدها حتى يكونوا غير قادرين على رؤية الأمور على حقيقتها،
وغير قادرين على ممارسة النقد والتمييز بين الخطأ والصواب
والمعقول وغير المعقول .

وهذه التيارات التى تقوم بتضليل العقل وتغييبه عن الوعى
الصحيح تكون فى الغالب ذات طابع دينى تخطط فيه بين الدين
والخرافات والأوهام والدجل والشعوذات فينسئ الناس جوهر
الدين وينشغلون بكل ما هو غير معقول وغير منطقى ، وبالتالى
غير مفيد ، الأمر الذى يشد الناس إلى دوائر الجهل والتعصب
والتخلف الذى نشهد آثاره اليوم فى مجتمعاتنا الإسلامية .

ومن هنا فإن من أولى أولويات العمل الإسلامى المستتير :
تحرير الناس من هذا التخلف العقلى والتردى الفكرى وإزالة
الغشاوة التى وُضعت على عقولهم حتى يكونوا قادرين على
رؤية الواقع على حقيقته ، وعلى فهم الدين فى صفائه ونقاؤه ،
وعلى تحكيم عقولهم فى كل ما يعرض لهم من قضايا حياتية
ودينية . وبذلك تكون الأمة قادرة بعقول أبنائها على الانطلاق
نحو التقدم والرقى. وتلك مهمة أساسية تُعد على رأس الأولويات
التي ينبغي أن يتحمل مسئوليتها قادة الفكر فى عالمنا الإسلامى.

ولا يجوز بأى حال من الأحوال افتعال خصومة بين الدين
والعقل . فالعقل - كما يقول الإمام الغزالى - شرع من داخل ،
والشرع عقل من خارج ، وهما متعاضان بل متحدان .
ويضيف قائلاً : " فالداعى إلى محض التقليد (فى الأمور الدينية)
مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار
القرآن والسنة مغرور " .

* * *

التكافل الاجتماعي وهرم الأولويات المقلوب^(*)

إن أى متأمل فى أحوال مجتمعاتنا الإسلامية يستطيع أن يتعرف بسهولة على العديد من الظواهر السلبية المنتشرة فى هذه المجتمعات والتي أصبحت بمثابة عادات متأصلة لدى الكثيرين ، ويستطيع أيضاً أن يتبين أن هناك خللاً واضحاً فى ترتيب الأولويات فى المجتمع الإسلامى ، وسوء فهم فى تقدير الظروف والملابسات التى تتفق مع تطورات الزمان والمكان ومع حاجات المجتمع الأساسية .

فالعالم الإسلامى - كما هو معروف - مصنف فى عداد الدول النامية أو المتخلفة أو الأقل تحضراً . والمشكلات التى تحيط بعالمنا الإسلامى والتحديات التى تواجهه كثيرة ومتنوعة . ومن هنا تسعى الدول الإسلامية الحريصة على الارتقاء بشعوبها إلى اعتماد برامج تنموية فى جميع المجالات . ولكن الكثير من هذه الدول لا تسعفها الموارد المتاحة لتنفيذ الخطط التنموية المستهدفة . وهذا يعنى أنه لكى تنهض هذه الدول لابد أن تتضافر معها مؤسسات المجتمع المدنى والموسرون من المواطنين فى المساهمة فى تقديم الخدمات الضرورية للمجتمع .

(*) نشر هذا الموضوع بصحيفة الأهرام فى ٢٧ يناير ٢٠٠٧ م .

ومن الطبيعي أن تكون لدى هذه المجتمعات النامية خطط طموحة ترتب أولوياتها ، فتعطى الأولوية للأهم ثم المهم ثم الأقل أهمية ، ولا تستطيع هذه الدول النامية أن تسمح لنفسها بتقديم الهامشيات على الضروريات ، فذلك ترف لا تستطيع هذه المجتمعات أن تتحمله أو تتحمل تبعاته . ولكن هناك بعض الفئات فى المجتمع لا تكثرث كثيراً بذلك كله . ومن هنا نجدها تقلب الآية أو تقلب هرم الأوليات فى المجتمع ، وتتجه للإنفاق بلا حساب فى أمور عبثية أو مظهرية أو فى أمور ثانوية لا ضرورة لها غير عابئة بما يسببه ذلك من مشكلات للدولة وللمجتمع .

ولنضرب مثلاً واحداً صارخاً له مظهر دينى يتكرر كل عام ، إذ يعمد مئات الألوف من المواطنين سنوياً إلى التوجه إلى الأراضى المقدسة لأداء فريضة الحج أو العمرة . وإذا كان المواطن يفعل ذلك لأول مرة فلا ضير فى ذلك ولا تثرىب عليه. ولكن معظم هؤلاء يذهبون سنوياً لتكرار الحج أو العمرة. وهذا التكرار يُعد من الناحية الدينية من قبيل النوافل ، أى: الأعمال التى لا ضرورة لها ، أو التى لها أهمية ثانوية . وينفق هؤلاء فى ذلك مئات الملايين من الجنيهات سنوياً . وذلك فى

الوقت الذى تشتد فيه حاجة المجتمع إلى العملة الصعبة التى تذهب سنويًا بمئات الملايين من الدولارات لهذه النوافل .

ويعمد البعض الآخر إلى الإكثار من بناء المساجد أو المعاهد الدينية تقرُّبًا إلى الله معتقدًا أن ذلك وحده هو الطريق الأمثل للحصول على رضا الله، على الرغم من أن عدد المساجد فى مصر يبلغ حوالى مائة ألف مسجد وعدد المعاهد الدينية يزيد على ثمانية آلاف معهد .

وينسى هؤلاء أو يتناسون أن الدين قد حث على التكافل الاجتماعى وأن الفقراء والمساكين لهم حقوق على الأغنياء كما يقول القرآن الكريم : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾  لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿ ^(١) . والنبي ﷺ يقول : [ما آمن بى من بات شبعانًا وجاره جائع إلى جنبه يعلم به] ^(٢) .

ولا يجوز النظر إلى الأمور من منطلق حق مالك المال فى حرية التصرف فى أمواله دون مراعاة لأى اعتبار آخر . فهذا ليس من الإسلام فى شىء . فالعقل ينبغى أن يحكم تصرفاتنا .

(١) سورة المعارج : ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير عن أنس بن مالك .

وليس من العقل ولا من المنطق أن أنفق أموالى فى النوافل وأمامى أبواب كثيرة للخير تدعونى وتحتى على أن أسهم فيها ، وتعد فى ظروف مجتمعنا من الفرائض .

إن المجتمع فى أشد الحاجة إلى تضافر الجهود وتعاون القادرين من أهل الخير على الإسهام فى حل مشكلاته ، وبخاصة ما يتصل بذلك من تقديم يد العون للمحتاجين وتفريج كربات المكروبين ، ومساعدة المرضى والأيتام وأطفال الشوارع وسكان العشوائيات وغيرهم من الفقراء والمساكين الذين يقول الله فيهم :

﴿ تَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾^(١) ..

ويثنى القرآن الكريم على هؤلاء :

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾^(٢).

(١) سورة البقرة : ٢٧٣ .

(٢) سورة البقرة : ٢٧٤ .

والإسلام إذ يلفت نظرنا إلى وجوه الخير المتعددة التى ينبغى أن تكون لها الأولوية فى الإنفاق عليها ، فإنه يُعلى من شأن التكافل الاجتماعى ويعتبره ترجمة عملية للإحساس بالآخرين والشعور بحاجة المحتاجين وآلامهم والتعاطف معهم .

وعلى الرغم من وضوح تلك المشكلات الاجتماعية - وهى مشكلات لا تخطئها العين ولا تخفى على كل ذى عقل - فإن هناك كثيرين من القادرين ينفقون فضل أموالهم فى أمور ترفية مظهرية لا ضرورة لها ولا فائدة منها ترجى للمجتمع ، وإن كان لها أحياناً مظهر دينى .

لقد فرض الله علينا الحج مرة واحدة فى العمر للقادر عليه مادياً وبدنياً، والعمرة واجبة لمرة واحدة ، وعند أداء الحج نؤدى فى الوقت نفسه أيضاً نسك العمرة . والنبي ﷺ لم يحج إلا مرة واحدة فقط . ولكن هناك أناساً مدمنين للحج والعمرة . وقد قال لى أحدهم ذات مرة إنه حج ستاً وعشرين مرة ، أما العمرة فحدث ولا حرج . فهل هذا أمر مطلوب دينياً ؟ أم أن ذلك يعد لوناً من ألوان الترف غير المرغوب فيه مادامت هناك أبواب كثيرة أخرى لفعل الخير فى أشد الحاجة إلى هذه الأموال المهدرة فى تكرار الحج والعمرة التى تبلغ مئات الملايين سنوياً !!؟

إن هذه الأموال الطائلة التى تتفق سنويًا فى هذه النوافل يمكن أن تحلّ الكثير من المشكلات الاجتماعية فى مجتمعنا التتموى . فالإسهام فى بناء المدارس والملاجئ والمستشفيات وإيجاد فرص عمل للشباب ومساعدة غير القادرين من طلاب العلم والمرضى والمحتاجين وتفريج كرب المكروبين وإدخال البهجة والسرور على اليتامى والمعاقين . كل هذه الأعمال - وغيرها كثير - ثوابها عند الله أعظم من ثواب تكرار الحج والعمرة الذى هو من قبيل النوافل فى الدين .

إن آيات القرآن الكريم تربط دائمًا بين الإيمان والعمل الصالح . والعمل الصالح ليس مساويًا لأداء الشعائر المفروضة فقط ، إنه يتسع ليشمل مد يد العون لكل الفئات التى أشرنا إليها وغيرها من الأعمال التى تخدم المجتمع وتُعلى من شأن الكافل فيه .

إن الأولوية التى يتحدث عنها القرآن الكريم فى أكثر من موضع تتمثل فى تحقيق مفهوم البر . والبر مفهوم جامع لكل الخيرات ولكل طاعة وقربة إلى الله تعالى . وفى شرح مفهوم البر يقول القرآن :

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ

وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ
وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا
عَاهَدُوا^١ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ^٢
أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا^٣ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ^(١).

ويحث القرآن في آيات أخرى على التعاون على البر
والتقوى^(٢) ويؤكد في وضوح لا لبس فيه :

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ^٤﴾^(٣).

وتلك هي الأولويات التي أكد عليها القرآن الكريم بعد
الإيمان بالله ، والتي تتمثل في إنفاق الأموال في وجوه الخير
العديدة التي أشارت إليها الآية الأولى . والأمر اللافت للنظر أن
النص عليها في الآية جاء سابقاً للصلاة والزكاة . وليس من بين
هذه الأولويات على الإطلاق تكرار الحج أو العمرة .

(١) سورة البقرة : ١٧٧ .

(٢) سورة المائدة : ٢ .

(٣) سورة آل عمران : ٩٢ .

إن التكافل الاجتماعي في الإسلام يأتي على رأس الأولويات لما لذلك من أثر كبير على استقرار المجتمع وترابطه وتماسك فئاته . والتكافل ينبع من الشعور بالآخرين والتعاطف معهم والإحساس بآلامهم وآمالهم . أما تكرار الحج والعمرة فإنه ينبع من الأنانية . فالمرء عندئذ لا يفكر إلا في نفسه معتقداً أنه في كل مرة يغسل ذنوبه ويتطهر من أوزاره . وهذا تفكير غير سليم ولا يتفق مع أولويات الإسلام .

إن القرآن الكريم عندما يقول : ﴿ إِنِ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتٍ ۖ ﴾^(١)، فإن ذلك لا يعنى بأى حال من الأحوال أن فعل الحسنات ينحصر في تكرار الحج والعمرة . فباب الحسنات هو باب الخيرات كلها . فكل عمل صالح - دينياً كان أم دنيوياً - هو من الحسنات التي تذهب السيئات ما دام قد قصد به المرء وجه الله ونفع الناس ودفع الأذى عنهم .

ولكن الأمر المؤسف أن هرم الأولويات لدينا مقلوب في كثير من جوانب حياتنا . فالهامشيات أصبح لها الأولوية والضروريات توارت وراء المظاهر الخادعة التي تتخذ لنفسها

(١) سورة هود : ١١٤ .

مظهرًا دينيًا زائفاً . ومن هنا يأتي هذا الخلل الواضح فى أولويات أفعالنا وتصرفاتنا . وإذا كنا نؤمن بالله حقاً ونتبع تعاليم الدين صدقاً فإن علينا أن نعيد النظر فى أوضاعنا وتصرفاتنا واضعين مصلحة المجتمع نصب أعيننا ، فالله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه ، ومن فرّج عن امرئ كربة من كرب الدنيا فرّج الله عنه كربة من كرب الآخرة ، كما ورد فى الأحاديث النبوية^(١) .

إن الإنفاق فى مساعدة هذه الفئات المحتاجة هو من ناحية ترجمة حقيقية لمبدأ التكافل الإسلامى - كما سبق أن أشرنا - ، ومن ناحية أخرى هو تأمين لنا جميعاً وتأمين للمجتمع بأسره ، وحماية لهذه الفئات من الوقوع فريسة فى أيدي من لا يرحم بتجنيدهم لأغراض دينية لتشر الفوضى والتطرف والإرهاب وتدمير المجتمع بالمخدرات والأعمال المنافية للآداب ، وبالتالي تدمير المجتمع كله ، وعندئذ لن ينجو أحد .

وينطبق على هذه الأوضاع ومثيلاتها ما جاء فى بعض الأحاديث النبوية من تشبيه البشرية بأناس اجتمعوا فى سفينة تمخر بهم عباب المياه ، فكان بعضهم فى أعلاها وبعضهم فى

(١) انظر : صحيح مسلم ، ج ٤ / ٢٠٧٤ .

أسفلها . وكان الذين فى أسفلها يأخذون حاجتهم من الماء بالصعود المستمر إلى أعلى السفينة . وبعد أن تعبوا من الصعود والنزول ومضايقات من هم فى أعلى السفينة قرروا أن يخرقوا لأنفسهم خرقاً فى أسفل السفينة يستقون منه حاجتهم من الماء . ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

[فإن أخذوا على أيديهم فمنعوا نجوا جميعاً وإن تركوهم غرقوا جميعاً]^(١) .

* * *

(١) رواه البخارى والترمذى والإمام أحمد .

(٧)

احتكار الدين

الدين فطرة غرسها الله فى نفوس البشر جميعاً . وقد وصف القرآن الكريم هذه الفطرة بأنها ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾^(١) . وأصل هذه الفطرة يرجع إلى بداية الخلق عندما خلق الله آدم أباً البشر وميزه عن بقية المخلوقات بأن نفخ فيه من روحه سبحانه . فكانت هذه النفخة الروحية الإلهية الممتدة من آدم إلى البشر جميعاً هى أساس هذه الصلة الحميمة بين الله والإنسان ، والتي تبلورت فى الدين . فإذا اتبع الإنسان فطرته الأصلية اهتدى بهداية الدين ، وإذا خالف فطرته انحرف عن طريق الدين إلى طريق آخر .

وهدف الدين هو تنظيم علاقة الإنسان بخالق هذا الكون من ناحية ، وعلاقته بنفسه وبالأخرين وبقية الكائنات من ناحية أخرى . وذلك كله من أجل خير الإنسان . فالدين - إذن - نعمة أنعم الله بها على الإنسان . وقد زوده الله بنعمة أخرى بالإضافة إلى ذلك وهى نعمة العقل . وكلاهما - الدين والعقل - يتعاونان معاً من أجل صلاح الإنسان وسعادته فى دنياه وأخراه .

(١) سورة الروم : ٣٠ .

والناس جميعاً أمام الله سواء لا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى والعمل الصالح. والدين اقتناع داخلي لا يتفق مع الضغط الخارجي أو الإكراه. فالإكراه في الدين يولد منافقين لا مؤمنين. والدين ليس في حاجة إلى نفاق المنافقين .

ولتأكيد ذلك قرر القرآن الكريم مبدأ حرية العقيدة في قوله : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾^(١) كما أكد ذلك في وضوح لا لبس فيه بقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾^(٢).

وقد بين الإسلام أنه ليس هناك سلطان بشري على عقائد الناس ، حتى النبي ﷺ ليس له سلطان على الناس في معتقداتهم وفي ذلك يقول القرآن : ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ ﴾^(٣). ويقول أيضاً : ﴿ لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾^(٤).

وإذا كان هذا هو الحال مع صاحب الدعوة الذي أرسله الله للعالمين بشيراً ونذيراً فمن باب أولى لا يجوز لأى سلطة بشرية

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ .

(٢) سورة الكهف : ٢٩ .

(٣) سورة المائدة : ٩٩ .

(٤) سورة العنكبوت : ٢٢ .

أيًا كانت أن تكون رقيبة على الناس في معتقداتهم . فهذا أمر من شأن خالق الكون رب البشر .

وعلى الرغم من وضوح موقف الإسلام في هذا الصدد فإن هناك بعض الفئات المتشددة في المجتمع الإسلامي تعطي لنفسها سلطاناً على معتقدات الناس لم يعطه الله لنبيه . ويتمادى هذا البعض في احتكار القوامة على الدين وعلى معتقدات البشر ، ويصل الأمر إلى سَوْقِ الناس سَوْقًا بالإكراه إلى أداء الشعائر . وهذا أمر مخالف للدين مخالفة صريحة. فالالتزام الشكلي بتعاليم الدين لا قيمة له ولا خير فيه . ومن هنا نجد الشيخ محمد عبده يقول :

" إن الله لم يجعل للخليفة .. ولا للقاضي .. ولا للمفتي .. ولا لشيخ الإسلام أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام .. ولا يسوغ لواحد منهم أن يدَّعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه وينازعه طريق نظره". ويضيف الشيخ قائلاً: "فليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتفكير عن الشر ، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خولها لأعلاهم يتناول بها

من أديانهم.. وليس لمسلم مهما علا كعبه في الإسلام، على آخر،
مهما انحطت منزلته فيه ، إلا حق النصيحة والإرشاد ^(١) .

وهذا يعنى أنه ليس من حق إنسان كائناً من كان أن يدعى
لنفسه سلطة على عقيدة أحد ، فذلك أمر متروك لله وحده الذى
شرع الدين للناس : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ ^(٢).

وعلى الرغم من ذلك فإن تلك الفئات المشار إليها تتماذى
فى غيها وتحتكر الدين لنفسها وتتصور أنها وحدها المالكة
للحقيقة المطلقة ، زاعمة أن فهمها للدين هو الفهم الصحيح ،
وأن أسلوبها فى تطبيقه هو الحق الذى لا شك فيه ، وتعتبر نفسها
فى نهاية الأمر هى الوحيدة التى تمثل الإسلام ، وأن من عداها
ممن لا يسير فى ركابها ليس من جماعة المسلمين ، وهنا تقوم
هذه الفئات بعملية فرز وإقصاء لمن تريد ، وتسعى لفرض
سلطانها على المسلمين بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة
عملاً بمقولة أن الغاية تبرر الوسيلة . وهذا تطاول على الدين

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (نقلًا عن : فتنة التكفير للدكتور
محمد عمارة ص ٧) من منشورات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
٢٠٠٦ م .

(٢) سورة الزمر : ٣ .

وعلى مُشرّع الدين وهو الله سبحانه وتعالى وعلى النبي ﷺ
الذى أتى بالدين .

فمن الحقائق المعروفة أن أفهام الناس مختلفة ، ومداركهم
متفاوتة طبقاً لمستوياتهم العقلية وظروفهم الاجتماعية وبيئاتهم
الثقافية . وحين شرع الإسلام الاجتهاد لم يعطِ هذا الحق لفئة
دون أخرى ، وتشجيعاً من الإسلام للاجتهاد أعطى للمجتهد -
الذى توافرت لديه شروط الاجتهاد - أجران إذا اجتهد وأصاب ،
وإذا اجتهد وأخطأ أعطاه أجرًا واحدًا . ولم يكن أى من أصحاب
المذاهب الإسلامية الكبرى يزعم أن رأيه وحده هو الحق الذى
لا مرأى فيه ، وإنما كانوا يعدون آراءهم مجرد اجتهادات بشرية
تخطئ وتصيب . وقد قيل للإمام أبى حنيفة ذات مرة : " هذا
الذى تفتى به هو الحق الذى لا شك فيه " فقال : " لا أدرى لعله
الباطل الذى لا شك فيه " (١) .

إن هذا الإمام العظيم لم يكن يزعم لنفسه الوصول إلى
الحق الذى لا مرأى فيه ، وإنما كان يعتبر اجتهاداته - كما كان
يقول أيضًا - تعبر عن وجهة نظره فقط : " قولنا هذا رأى وهو

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبى زهرة ص ٣٦٢ (دار الفكر
العربى - دون تاريخ) .

أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاء بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا^(١). وإذا كان هذا هو حال أبى حنيفة فإنه لا يجوز لأى فئة أن تعطى لنفسها حق احتكار الفهم الصحيح للدين، وتتصّبب من نفسها قيّمة على هذا الدين تُدخل فيه من تشاء، وتُقصي من تشاء وفقاً لمعاييرها الخاصة، وكان العناية الإلهية قد كلفتها وحدها من بين كل الطوائف الإسلامية بمهمة القوامة على هذا الدين.

إن الله سبحانه جعل العلاقة بينه وبين الإنسان علاقة مباشرة لا تحتاج إلى واسطة، كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾^(٢)، وفى قوله : ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٣)، وقوله : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٤). وغير ذلك من آيات وأحاديث نبوية عديدة تؤكد هذه المعانى.

(١) المرجع السابق .

(٢) سورة البقرة : ١٨٦ .

(٣) سورة غافر : ٦٠ .

(٤) سورة ق : ١٦ .

وإذا كان الدين يرفض الاحتكار في مجال الأمور المادية التي تتعلق بحاجات المجتمع فإنه يرفض رفضاً قاطعاً الاحتكار في المجال الروحي ، ويرفض الوصاية على عقائد الناس وضمايرهم . والله سبحانه وتعالى لم يخوّل أحداً من عباده حق التحدث باسمه عدا الأنبياء . ومن هنا فإنه لمن التناول على حق الله أن ينصبّ فرد أو جماعة من أنفسهم متحدثين رسميين باسم الله وباسم الدين وباسم صاحب الشريعة .

إن المسؤولية في الإسلام فردية ، وكل إنسان مسئول فقط عما يصدر عنه من أفعال ومسئول عما هو مكلف به من تبعات كما جاء في القرآن الكريم في مواضع عديدة: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾^(١) وكما جاء في الحديث الشريف :

[كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راعٍ وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ في أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيته ، والخادم راعٍ في مال سيده وهو مسئول عن رعيته ، فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته]^(٢) .

(١) سورة المدثر : ٣٨ .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي .

أما مسئولية علماء الدين فتتخصر في حق النصيح والإرشاد فقط بعد أن يكونوا قد تفقهوا في الدين أولاً كما جاء في القرآن الكريم : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾^(١).

ومما تقدم يتضح لنا بنصوص قاطعة أن الإسلام قد حرر العلاقة بين الله والإنسان من أى تدخل من جانب البشر بأى شكل من الأشكال . فالله وحده هو المطلع على قلوب الناس وهو العليم ببواطنهم ، وهو وحده الذى سيفصل بينهم يوم القيامة - كما أكد ذلك القرآن الكريم - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾^(٢).

* * *

(١) سورة التوبة : ١٢٢ .

(٢) سورة الحج : ١٧ .